﴿ الفصاحة والدين ﴾

فيما بين الفصاحة والدين علاقة كبيرة وقربى قريبة بل ان له منها اتصالا ضرورياً وارتباطاً واجباً حتى يوشكا ان يكونا صنوين متلازمين وذلك لما يقتضيه الدين من قوة الاقناع وشدة الحجة وسداد البرهان وهو كله مما يقتضي الفصاحة وحسن البيان ولطف التعبير والاحتيال على التاثير وانك اذا كنت تجد القرآن الكريم ضافية آياته بالحكمة ملأى جوانبه بالزواجر والاوامر طافحا كله بالشرائع الفاضلة والسنن القويمة فان له مع كل هذا عماداً من الفصاحة قوياً وركناً من البلاغة شديداً بحيث انه لولا فصاحته وبلاغته وما فيه من لطف بيان ووضوح اسهاب وايجاز لما كان الا كتاب شرع ديني كغيره او قانوناً جامعاً لمواد ليس الا وانه من اجل تلك الفصاحة وسائر ما له من المحاسن تجده مقبلاً عليه اي اقبال من كل ناطق بالضاد مسلماً كان او غير مسلم . بل انه اذا كان لا تبديل لكلماته من الجهة الدينية لدى قومه ومتبعي شرائعه فانه حقيق ايضاً ان لا يكون لكلماته تبديل من الجهة الادبية لدى كل عربي بالاطلاق لانه لا يمكن ان يؤتى بانصع من الفاظه ولا اجمل من تراكيبه ولا احلى من سرده لتلك الايات الباهرات وتقديره لتلك العبارات المحكمات

ولقد بدا لرجال الدين المسيحي في هذا العهد ان الاقبال على الكنائس قد قل على كثرة الناس وضعف على عدم ضعف في تدينهم بدليل ما يشاهد من التزامهم جوانب الادب وحدود المدنية وبعدهم عن المضرة والاذية .

لذلك زعم بعضهم انه كلما كثرت الملاهي في مكان قلت الرغبة في كنائسه لان الانسان العاقل لا يرى في عدم ذهابه الى الكنيسة هدماً لعقيدته ولا تنقيصاً لدينه وانما هو قد خلق محباً للهو والطرب فهو يقصدهما اين كانا ولا سيما حين يكونان ميسوران لديه كما هو حاصل الان بسبب هذه المدنية ولذلك قيل ان الكنائس ادركت هذا قديماً فجعلت صلواتها الحاناً ترغيباً للناس وتشويقاً وزعم بعضهم ولعل زعمه هو الصواب ان ضعف الفصاحة هو الداعي الى ذاك الضعف ولا سيما في القرن الحاضر الذي تربت افهام الناس فيه تربية سامية وصاروا لا يعتدون من القول الا بما كان فصيحاً جميل التركيب وهم من اجل هذا يعافون الكنائس لانهم لا يجدون فيها الا قديم الصلوات ومهجورها بالقياس الى الحاضر فهم لا يسمعون واعظاً بليغاً ولا مصلياً فصيحاً ولا يتلى على اسماعهم شيء يذكر من محكم القول وجيد التركيب وذلك لان الكنائس قد تركت قديم الكتب على قدمه ولانها لا تنتقي الوعاظ من رجال الفصاحة وحسن البيان بل انها لا تؤهل من كان كذلك لهذه المهمة ولهذا ملّ الناس ذاك القديم وصاروا لا يهتمون به كثيراً وقد استشهدوا على ذلك ببقاء النساء على كثرتهن من جهة حضور الصلاة في الكنائس على حين الرجال قد قلوا قلة واضحة وليس هذا لما هو مشهور من ان المرأة اكثر تعبداً من الرجل بل لما هو مشهور ايضاً من عدم اعتدادها بالفصاحة وتنبهها اليها

على ان هذا الحديث اذا كان قد روي عن الافرنج وهم ممن يهتمون للفصاحة ويراعونها وكان قد راعهم ما فيها من بعض النقص فانه جدير بان يروعنا بالاكثر ويكون لنا اشد تنبيهاً وذلك ان الفصاحة معدومة تقريباً في

كنائسنا وكتب ديننا حتى لقد تضرب الامثال بسقم تراكيبها واختلال الفاظها وكثرة انتشار الخطأ فيها بكل جانب منها . ثم ان تلك الصلوات لو كانت عربية لهان امرها ولو فشا فيها ما فشا من الخطأ وضعف ما ضعف من حسن البيان ولكنها لسوء الحظ او لحكمة لا ندريها مختلفة اللغات فتارة نسمعها بالرومية وأخرى بالسريانية وطوراً بالعبرانية وآخر بالكلدانية واحياناً نسمعها بكل اللغات حتى يخال لنا اننا في بابل لا نعي شيئاً وكل هذا تقصير يحسن تلافيه او عادات لا بأس بتغييرها اتباعاً لمقتضيات العصر لان المسيحيين في الشرق كانوا من عهد ليس ببعيد وهم عرب بالاسم فقط حتى لقد كان المسيحي العارف شيئاً من النحو والصرف يعد من جملة الغرائب والنوادر واما الان فقد صار المسيحيون اشد تعلماً للغة العربية وغيرة عليها من المسلمين العرب انفسهم وصرت ترى فيهم اللغوي المحقق والكاتب المجيد والشاعر السابق والمدقق الذي لا يرضى منك الا بالفصيح المصفى والبليغ المنقى ثم ان مسيحيي العرب كانوا عدداً قليلاً لا يعتد بهم ولا بمحبي الفصاحة منهم واما الان فقد صاروا يعدون بمآت الالوف وصرت تراهم لفرط محبتهم للبلاغة يحفظون القرآن كالمسلمين ويسرون لسماع تجويده ويستشهدون بآياته ويقتنونه كأنفس ما يقتنون من الكتب ولذلك ظهرت الفصاحة كانها دين آخر لهم يعظمونه ويمجدونه . وانه لا غرو في ذلك ولا غرابة لان الفصاحة هي دين الجميع ومعتقد الكل ومحبوب الجملة ولقد كان ابو اسحق الصابي في نظر الشريف الرضي المتحدر من عنصر النبوة وهو بمنزلة الوف من المسلمين لا لشيء الا لفصاحته وحسن بيانه وكونه كان اكتب اهل زمانه واجودهم تصرفاً في وجوه الكلام على كل حالة . ولقد

كان الاخطل الشاعر مسيحياً ولكن بني أمية كانوا يعجبون به اكثر من الفرزدق وهو منهم نسباً وديناً وذلك لان الفصاحة كانت الدين الاجمع والاقوى والى هذه الحالة يشير ابو تمام بقوله لبعض ممدوحيه

ان يعجب الاقوام انى عندكم ... من غير ذي نسب به متوصل
فبنو أمية والفرزدق صنوهم ... نسباً وكان ودادهم للاخطل

وروي عن احد الخلفاء (ولعله عبد الملك بن مروان) انه قال عن الاخطل، ان شعره حبب اليه النصرانية. وانت ترى من هذا ان أولي الفصاحة كانوا يغارون عليها ويودونها كانها دين آخر لهم ويعتدون شعبها كانه منهم والمبتعد عنها منهم كانه غريب عنهم . لذلك صار يحسن ان تكون هذه الفصاحة ديناً منفرداً يحبب كل انسان بدينه المختلف عن سواه لانه يعد من العار ان تكون خطبة في مرافعة لدى محكمة وهي افصح جداً من صلاة تتلى في كنيسة ومن التقصير الشائن ان تكون الكنيسة مملوءة بالذهب والنقوش الثمينة ولا تكون صلواتها مملوءة بفصيح القول ومواعظها منقوشة بمحاسن الكلم ومحكم البيان

واننا اذا كنا ذكرنا تقصير المسيحيين من العرب عن الافرنج من جهة الفصاحة مع انهم شكوا منها فجدير بان يكون تقصير المسلمين اشد لان الفصاحة تلزمهم الزاماً ولهم بها من القرآن الكريم اعظم محرض ومغرٍ ولكنهم على كون فصاحة القرآن تملأ اسماعهم وافواههم كل ساعة تراهم لا يحفلون بها ولا يقلدون ما يقرأونه منها حتى أصيب المسلمون بنفس ما أصيب به المسيحيون وهم من اجل هذا قد قلّت صلواتهم في الجوامع واصبح لا يقصدها منهم الا من كان على شاكلة النساء المسيحيات لا تهمه فصاحة

ولا بلاغة حتى ندر ان ترى في الجوامع احداً من تلامذة المدارس او المشتغلين بالادب وذلك لانهم لا يسمعون وعظاً بليغاً ولا يمر على آذانهم قول فصيح بل هم احق ان تكون مضايقتهم اشد اذ يسمعون ابلغ كلام وهو كلام القرآن يتلوه ادنى بيان وهو بيان الواعظ وكلام الخطيب

ولقد اشرنا فيما مضى شيئاً الى هذا الشأن ولا بأس الان من معاودته تشريفاً لقدر الدين بالاكثر ان لم يكن تشريفاً لقدر اللغة العربية بالاقل وما هي في الحقيقة بقليلة

﴿ آمال الانسان ﴾

لقد اجتاز الانسان في هذا العهد وابعد امد من آماد الاختراع والاستنباط والاستكشاف حتى ما ترك امنية له من هذا القبيل الا وصل اليها وحققها ولكنه مع ذلك لا يزال يطلب المزيد مدفوعاً بالطبع الانساني الذي اشار اليه اليازجي بقوله

لا تنتهي همم الفتى فاذا انتهى ... وطر تجدد غيره في الخاطر

ولقد علم القراء بشتى الاختراعات التي يتلو بعضها بعضاً في هذا العهد ولكن الذي يظهر ان الانسان لم يسترح بها تمام الراحة بل هو يجد أن من حق الطبيعة ان تخدمه في كل شيء حتى لو علم انها تستطيع ان تمضغ له طعامه مضغاً لكلفها ذلك واراح نفسه منه وبعبارة اخرى انه اراد ان تخدمه الطبيعة ليستريح فخدمته ببخارها وكهربائيتها وسائر ما سامحت به